الإمَامُ القُشـــيْري حَياتُهُ وبَعْضٌ مِنْ آثَـــارِه (كِتابُه الرسَالة أنموذجاً)

د . محمّد عبدالله علي عبدالله ـ قِسم الدّراسَـــات الإسَلاميْة ـ كُليَة التَربيَة
جَامعة الزيْتونَة.

المُقـــدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والســـــلام علـــى خير خلق الله أجمعين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه نجوم الهداية ، والإيمان .

وبعد :

لاحظت وأنا أعدّ بحث الدكتـــوراه في التصوف الإســـلامي ، ومن خلال ما رجعت اليه من مصادر ومراجع عربية وإفرنجية ، أن شخصية الإمام القشيري موضـــوع جدير بالدراسة ، نظـــرا ؛ لأنّـــه يؤخذ في رأيه دائما أنه المُتصوف المعتدل الذي لا يبتعد عن الشـــريعة ، وأنه يخلو من التطرف ، والشطط ، ومن خلال تتبعي لمؤلفات القشيري ، على الرغم من محبتي للرسالة كونها من مصادر بحثي المهمة ، إلا أنها ليست أهـــم كتبه ، فلطائف الإشارات يفوقها مـــن حيث القدر والنوع ، إذ هـــو تفســـير كامل للقرآن الكريم بطريق الإشارة ، وهو محقّـــق ومطبوع يقع في ثلاث مجلدات .

نرجع بالحديث عن محاولات القشيري الصادقة التي بذلت في التصوف ، وهي محاربة الابتداع والتضليل، فأزال في رسالته ما علق بالتصوف من جهل وتجني ، أُدين بها التصوف الإسلامي وهو منها بـــرئ ، فالقشيري السني كان مميزا في علمه بالتصوف السني عكس ما فعله بعض علماء أهل السنة كابن الجوزي وابن تيمية وغيرهما كثير ممن نصبوا العداء للتصوف والمتصوفة ورموزهما بأبشع الاتهامات.

لهذا فإن دراســـة شيخ مثل القشيري تفيد أعظم فائدة في معرفة موقف باحث من علماء أهل السنة ومتكلم أشعري متصوف يدرس مسائله الدقيقة المفعمة بالحساسية ، كالحبّ الخاص الذي ينشأ بين العبد وربه ، إضافة الى ذلك أنّ الامام القشيري أقبل على البحث في التّصوف بعد أن عانى بنفسه التجربة الصوفية ، فنشاهد كتاباته تبين خبرته في هذا العلم ، وهـــذه مسألة طالما ألـــحّ كبار الصوفية على أهميتها ، وطالما نادوْا بأنَّ علومهم ومصطلحاتهم وأخبارهم لا يمكن أن يفهمها حـــق الفهم ولا أن

يقــدّرها أحسن التقدير إلا من كابدها فعلومهم غير مسْـــطورة في أوراق ، ولكنها مرتهنة بأذواق .

ونعتذر عن إطالة المقدمة ؛ لأنني أردت أن أنبه القارئ المتخصص على أهمية دراســـة الإمام القشيري ومؤلفاته دراسة مستفيضة ؛ لأن مكتباتنا الجامعية تفتقر إلى مثل هذه الدّراسات لأسباب عـــدّة لا يسمح المقام بالحديث عنها .

وأخيراً في هذه المقدمة أقول ـــ : فمن الخدمة لهذا الدّين بصورة عامة ولعلم التصوف خاصة أن تُكتب دراســـة تبيّـــن نبذة مختصرة عن حياة الإمـــام القشـــيري رحمه الله وكتابه (الرســـالة) ، وأقـــول للإيضاح : لمن أراد البحث في هذا الموضوع إنه موضوع جدير بالدراسة والبحث نظراً لأهميته ِكما أسلفتُ، والله يهدي إلـــى سواء السبيل ، وقد اقتضى موضوع البحث أن أقسمه على مبحثين :

المبحث الأول : حياة الامام القشيري الاجتماعية : وجاء تقسيمه على ثلاثة مطالب : المطلب الأول : اسمه وكنيته ونسبه ، والمطلب الثاني : ولادته وأسرته وزوجته ، والمطلب الثالث : أبناؤه ثم وفاته ، وفي المبحث الثاني : عصره السياسي وعلمه : وجاء تقسيمه على ثلاثة مطالب : المطلب الأول : الحالة السياسية ، والمطلب الثاني الحياة العلمية ،و المطلب الثالث : كتابه (الرسالة)

واعتمدت في كتابة بحثي على كتب التراجم وغير ذلك من المصادر والمراجع مما بينته في ثبت المصادر والمراجع ، ولا أقول أنني أحطت بالموضوع من جميع جوانبه - حاشا لله - فإن ذلك يحتاج إلى مجهود كبير ، ولا أدعـــي الكمال ، فإنه لله وحده ، ولكن حسبي أنني اجتهدت ، والحمد لله ربي العالمين

المبحث الأول ــ الحـــياة الاجتماعيـــــة:

المطلب الأول ـ اسْمُه وكُنيَته ولقبه ونسبه

أولاً ـ اسمه وكنيتـــه : هو عَبْد الكَرِيمْ بن هَـــوَازِنْ بن عَبدْ الَملِكْ بن طَلْحَة بن مُحَمد الخُرسَاني النَيسَابُوري الشَافِعي الصُوفي ([1]) أما كنيته : فيُكَنى بـأبي القَاســـم([2])، وهذا ما اعتاَد عليهِ الأقدَمُون من العلماء .

لقْبُه ونَسبه : يُنسب الى قُشَـــيْرٍ بن كَعب بن ربيْعَة بن عامر بن صَعْصَعْة القُشيْري الأب السُلمي الأُم ، وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها كثير من العلماء في خُرسان([3])، ولُقب الأمام القشيري ـ بجمال الدين ([4]) .ـ وسماه الإمام السُبْكي بزَينِ الإسلامِ([5]) ، مطلقاً

الفقيه المتكلم الأصولي المفسر الأديب النحوي الكاتب ، ومقدم الطائفة كما يقولون ، والمقصود به سالك الطريقة وسداد الحقيقة وعين السعادة ([6]).

المطلب الثـــــــاني ـ ولادته وأسرته

أولاً ـ ولادتُـــــه : اشارت أغلب المصادر التي اطلعت عليها بأن ولادته كانت سنة ست وسبعين وثلاثمائة في شهر ربيع الأول([7])، وأصله من ناحية أُستواء([8])، من العرب الذين أتوا إلى خُرسان وسكنوا نواحيها([9]) .

ثانياً ـ أسرَته :

1ـ وَالِـدُه : هــوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن كان مولوعاً بالأدب والشعر ، وخاصة الكتب التي تخص الرقائق([10]) ، توفي مبكراً لذلك فان المصادر نادرة في ترجمة حياته ، مات أبوه وهو طفل صغير وتربى يتيماً فقيراً ([11])

2 ــ والدَتُهُ: هي سَلِيْمةُ من بني سَليم كانت سيدةٌ فاضلةٌ ذات علمٍ وحكمةٍ ، توفيت سنة 480هـ .([12])

3 ـ زوجته : هي فاطمة بنت أبي علي الدقاق الذي كان من كبار مشائخ الصوفية في عصر الإمام القشيري ، وزوّجَه ابنته مع كثرة أقاربها فأصبح في زمــرة أبي علي الدقاق ، وكانت معروفة بالزهد والورع ؛ لأنها ابنة أبي علي الدقاق الذي كان بيته من بيوت العلم والتقى والزهد والورع ، توفيت السيدة الصّالحة الخيّرة فاطمة بنت السيد وزوجة السيد وأم السادات - رضى الله عنهم أجمعين- في ذي القعدة سنة 480 هـ ([13]) .

المطلب الثالث ـ أبنَاؤه، ثم وفَاته

أولاً : أبنَاؤه : الإمام القشيري له عــدة أبناء كلهم عبادلة منهم أبوسعد عبدالله ، وأبو الفتـــح عبيد الله ، وأبو سعيد عبد الواحد، وأبو منصور عبد الرحمن، وأبو نصر عبد الرحيم ، وأبو المظفـر عبد المنعم كانوا جميعا من العباد الزّهاد ومن المحدثين، وهم : ([14])

1 ـ عبدالله ــ بن عبد الكريم بن هَــوَازِنْ القشيري الإمام ناصر السنة ، وكنيته أبو سعد ، ولد سنة اربع عشر واربعمائة 414 هـ ،كان أكبر أولاد الشيخ كان كبير الشأن في السلوك ذكياً أصوليا ، غزير العربية ، سمع من أبي بكر الحــيري وغيره ، توفي في السادس من ذي القعدة سنة سبع وسبعين وأربعمائة 477 هـ ، قبل وفاة أمه السيدة فاطمة بنت الدقاق بأربع سنين وعمره 64 سنة ([15])

2ـ عبيد الله ـ بن عبد الكريم بن هــوازن القشيري كنيته أبو الفتح نشأ في تربية أبيه وكان يميل إلى طريقة وزي الصوفية ، سمع من كثير من المشائخ منهم أبا الحسين وابن مسرور وغيرهما ، وسمع تصانيف والده، وحدّث وروى عنه أهل بلده وهو في سن مبكرة ، كان فاضلا كثير العبادة له مصنفات في علوم الطريقة ، سكن اسفرايين وبقى بها الى أن توفي في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة 521 هـ ([16])

3 ـ عبد الواحد ـ ابن عبد لكريم بن هــوازن ، كنيته أبوسعيد الملقب بركن الإسلام ، ولد سنة ثمانية عشر وأربعمائة ونشأ في العلم والأدب وكان مداوما على تلاوة القرآن سمع الحديث من والده وأبي الحسن بن محمد الطــرازي وحجّ بعد الثمانين سنة 481هـ ، وصار في آخر عمره سيد عشيرته ، توفى يوم الأحد وقت الظهر الحادي من جماد الآخرة سنة أربع وتسعين وأربعمائة 494 هـ ، ودفن في مدرسته عند أبويه وأهله رحمهم الله جميعاً .([17])

4 ـ عبد الرحمن ـ بن عبد الكريم بن القشيري هــوازن كنيته أبو منصور ثالث بنيه الثلاثة أسباط أبي علي الدقاق مولده في صفر سنة عشرين وأربعمائة سمع من أبي الحسن وأبي عبدالله المزكّى ، وابن باكوية ، وسمع الصحيحين والمسانيد الكثيرة ، وسمع ببغداد من القاضي أبي الطيب ، والجوهري ، وأبي يلعى الفداء وطبقتهم وسمع بالريّ وهمدان ثم ورد بغداد حاجاً سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وحدث بها ، توفى بمكة في شعبان سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة 482هـ([18])

5 ـ عبد الرحيم ـ بن عبد الكريم بن هــوازن وكنيته أبو النصر القشيري ، قرأ على أبيه ، وذكر أنه كان أشبه الناس بأبيه خلقاً ، رباه أحسن تربية ، وعلمه العربية حتى برع فيها، وكان ذا ذكاء وفطنة وله خاطر حاضر جرئ ولسان ماهر فصيح ، كانت وفاته في نيسابور سنة خمسمائة وأربعة عشر، في جماد الآخر ، وأقيم له عزاء مهيب في رباط شيخ الشــيوخ([19]).

6ـ عبد المنعم ـ بن عبدالكريم بن هوازن كنيته أبو المظفر القشيري آخــر من بقى من أولاد أبي القاسم القشيري وهو أصغرهم سناً ولد سنة خمس وأربعين واربعمائة445هـ ، سمع من أبيه وأبي بكر البيهقي ، وعبد الوهاب الأنماطي وغيرهما ، كان كثير العبادة ، واشتغل بكتابة المصاحف ، وصنف تفسيراً وكتاباً في الأصول ، وسافر بعد وفاة والده إلى أخيه أبي النصر عبدالرحيم إلى الحج ، فحج وتوفى بين العيدين سنة اثنتين وثلاثيــن وخمسمائة 532 هـ ([20])

7 ـ أمةُ الرحِيمْ ـ وهى : ابْنَةُ القُشيري الوحيدة المكناة أمَة الرحيم بنت أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، ولدت سنة ثنتان وعشرون وأربعمائة ، من أسباط أبي علي الدقاق أحد إماء الله العابدات القانتات أخذت الطريقة والزهد عن والدتها الحرة ومن أخوتها ،توفيت سنة ست وثمانون وأربعمائة 486 هـ ([21])

ثانياً ـ وفَاتُـــه : فكانت صبيحة يوم الأحد في ربيع الآخـــر ، سنة خمس وستين وأربعمائة عن تسع وثمانين سنة ودفن إلى جانب أستاذه أبي علي الدقاق بالمدرسة ([22])

المبحث الثـــــــاني ـ عصـــره السياســـي ، وعلمه:

المطلب الأول ـ الحالةُ السياســـية :

عندما ضعفت الخلافـــــــة العباسية في آخر أيامها ، و تفكّكت الدولة إلى عدة مماليك مما أدّى الى سقوط بغداد عام 477 هـ في أيدي السلاجقة ، أما مصر والمغرب العربي في تلك الفترة فقد كانا تحت الحكم الفاطمي .

أما نيسابور التي عاش فيها القشيري ـ وهذا ما يهمنا ـ فقد كانت تعاني من العصبيات بين فرق المتكلمين مثل : النزاع بين الشافعية والحنابلة وبين الشيعة والقرامطة لذلك تأثرت حياة الناس بهذه النزاعات ونتج عن ذلك الجوع والفقر والمرض ، وكثر السلب والنهب والقتل والتخريب والأمثلة كثيرة تمتلئ بها كتاب شـــذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، ومن أمثلة ذلك عام 449 هـ ، مات من الجوع خلق كثير حتى أكلت الناس الكلاب وورد في كتاب من بخارى، أنه وقع الوباء حتى خرج في يوم واحد ثمانية آلاف جنازة ، وبقيت الأسواق فارغة والبيوت خالية وامتدّ الوباء حتى وصل أذربيجان والأهواز والكوفة وأرغم الجوع الرجل حتى باع أرضه بخمسة أرطال ، فتاب الناس وأراقوا الخمور وكسروا المعازف وتصدقوا بأموالهم والتزموا المساجد ([23]) ، ويصف ابن كثير هذه الفترة فيقول : حصل جوع شديد في معظم النواحي حتى كان الناس يشـــوون الكلاب وحدث وباء حتى كان الإنسان ، فاذا بقلبه ينشق فاذا بالدم يخرج من فمه فيموت ، وتاب الناس وتصدقوا بأكثر أموالهم ، وكان الفقير تعرض عليه الدنانير الكثيرة والدراهم والثياب، فيقول : أنا أريد كسرة خبز ، أريد ما يسد جوعي ، وأراق الناس الخمور ، وكسر آلات اللهو ، ولزموا المساجد للعبادة وتلاوة القـــرآن([24])

والذي يلاحظه القارئ من خـــلال وصف المؤرخين أن ما ألـــم بالناس من مجاعات وكوارث ، ملاء النفوس بالخشية ، وأيقظ فيها الزهد والتوبة فاذا كان ذلك محتمل الوقوع

في صفوف عامة الناس ، فما بالك بأصحاب النزعة الصوفية الأصلية . يقول القشيري في رسالته : إن عبدالله النزوغندي قال : لزوجته لما كانت أيام المجاعة وكان الناس يموتون من الجوع ، أفي بيتي صنفان من الحنطة والناس تهلك ؟ وظل يردد ذلك حتى خولط في عقله ، فما كان لا يفيق إلا في أوقات الصلاة ، يصلي الفريضة ثم يعود إلى حالته ، فلم يزل كذلك إلى أن مات ([25])

ويعلق القشيري على ذلك ، فيقول: كان سبب غيبته عن تمييزه شفقته على المسلمين ، وتلك أقوى سمة لتحققه في حاله ([26]) ، وكان من مظاهر فساد الحياة الاجتماعية تفشي البدع والمنكرات، وقد تعرض الإسفراييني شيخ القشيري للأذى ، حين أقبل عليه الروافض يسبونه ويُهينُونه نتيجة لكشف مخازيهم وهتك فضائحهم، وحين حمل بعض أهل السنة إليه مصحفاً ، قيل : أنه على قراءة ابن مسعود ، مع أن فيه خلافات كثيرة أمر بتحريقه ، وإذ برجل رافضي ينهض ، ويشـــتم من أحرق المصحف ، فأخذ وقتل ، فثارت الشيعة ووقع القتال بينهم وبين السنة ، واختفى الاسفراييني ، واستظهرت الروافض ، وصاحوا : الحاكم ، يا منصور : فغضب القادر بالله ، وبعث مدداً لمعاونة أهل السنة فانهزمت الرافضة ، وأحرقت دورهم .

وفي وسط هذه الأحداث كان : اللصوص يندسون بين الناس ، ليرتكبوا أبشع جرائم النهب والسطو ، وأحياناً يتجاســروا على النزول للأسواق والشوارع نهاراً جهاراً ، دون أن يبالوا بالشرطة ، وهكذا انتشرت الفوضى وغلت الأسعار ، وتوقّف الناس حتى عن الذهاب للحج .

وعلى الجملة فإن الحياة في هذا العصر كانت سيئة نتيجة للتفكك السياسي ، وتعدد نظم الحكم التي تناوبت على البلاد .

المطلب الثاني ـ الحياة العلمية :

على الرغم من أن عصر القشيري كان عصر تفكك وضعف ، إلا أنه كان على النقيض من ذلك عصر نشاط علمي وازدهار ثقافي ، فلم تعد بغداد وحدها كعبة العلم والعلماء ، بل كانت هناك عواصم جديدة للممالك الجديدة ، تنافست ما بينها في هذا المضمار ، وطمحت كل منها إلى أن تتفوق على الأخرى في الاستحواذ على أكبر عدد ممكن من رجال العلم وعلى أن تلفت الأنظار على دورها الثقافي الذي يمكن أن يجد مكانا بين المراكز العلمية في بغداد الكبرى، وكان من أهم هذه المراكز ،القاهرة وحلب وغَزنَة وبُخارى، أما في خرسان فنيسابور ومرو وهراة وبلخ وبست وطوس وسجستان ، وإذا كان العصر العباسي الأول عصر الترجمة والنقل ، وكان العصر العباسي الثاني

عصر تمثيل للثقافات المترجمة ، وخاصة اليونانية والفارسية والهندية ـــ فان هذا القرن الذي عاش فيه القشيري ـــ كان عصر التفتح والابتكار في سائر العلوم العقلية والنقلية

وبالرغم من تعدد المذاهب والنحل واختلافهم سياسياً ومذهبيا إلا أنهم اتفقوا في شيء واحد هو تشجيع العلم والعلماء ، وسواء أن كانت هذه البواعث نتيجة للمنافسة بينها وبين بغداد أو كانت بقصد الترويج لمذاهبهم ، أو كانت استرضاء لخدمة الدين ، فأياما كانت الأسباب فإن نهضة علمية شاملة قد عمت العالم الإسلامي في هذا الوقت ، حيث امتلأت المكتبة العربية بنفائس عظيمة ، مازالت حتى عصرنا الحاضر نابضة خالدة ، فليس بمستغرب أن ينكب الامام القشـــيري على التزود من هذه المعارف ، وأن نسمع عنه أنه الصوفي المحدث الفقيه المفسر المتكلم اللغوي النحوي الشاعر ، وإلى جانب ذلك فهو خبير في الخطوط ، وعليم بفنون الســـلاح .

ومن أهم الملامح المميزة في هذا العصر : إنشاء المدارس ، والواقع أن نيسابور كانت أسعد مدن العلم الإسلامي في هذا الاتجاه ، إذ أنشئت في عهد المأمون أول مدرسة في تاريخ المسلمين ، ينطبق عليها الوصف الحديث لكلمة مدرسة ، كما أنشئت بها مدرسة ابن فورك أستاذ القشيري ، والمدرسة البُيْهقية نسبة الى البهيقي (ت سنة 450 هـ) ومدرسة الاستر آباذي الصوفي الواغظ ومدرسة خاصة بأبي إسحاق الاسفراييني ([27])، وعرف هذا العصر إلى جوار تلك المدارس مجالس الإملاء يتصدرها علماء الأصول والفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب ، وقد تتلمذ القشيري بعد أن حل بنيسابور في مجالس الطوسي وابن فورك والاسفراييني ، ويقال أن مجلس الاسفراييني كان يحضره سبعمائة متفقه ([28]) ، وإن مجلس ابن الحسن العلوي النيسابوري كانت تعد فيه الف محبرة ، فضلا عن مجالس أبي سهل الصعلوكي : الذي أشار اليه القشيري في رسالته ([29]) ، والثعالبي : الذي وصفه ابن خلكان بأنه كان أوحد عصره في التفسير والجويني والبهيقي وغيرهم ، وكان التلاميذ في هذه المجالس ينسخون ما يسمعون ، وكان ذلك مدعاة إلى الدقة والتثبت ، وهى طريقة كان يراها الشيوخ أفضل من الاعتماد على الحافظة ، وكما تتلمذ القشيري في هذه المجالس ، كذلك تصدرها استاذاً وتخرج على يديه طلاب كثيرون . وإلى جوار المدارس ومجالس الاملاء وحلق الذكر كانت وسيلة أخرى لنشر المعرفة هي مجالس المناظرات ، ومن أمثلتها ما كان بين بشر المريسي وعبد العزيز بن يحي الكتاني حول موضوع خلق القرآن وآراء المبتدعين ، وما كان بين ابن حزم وسلمان بن خلف، وما كان بين الباقلاني المتكلم السني وابن المعلم متكلم

الرافضة ، وما كان بين أبي إسحاق الأشعري ، وبين القاضي عبد الجبار المعتزلي حول الإرادة الإلهية والفعل الإنساني والذات والصفات، وقد شهد القشيري مناظرة جرت بين صديقه إمام الحرمين وبين أحد الفلاسفة حول خلق القرآن([30])، كما شهد القشيري أبي سهل الصعلوكي مع وفد من فارس يضم علماء أئمة في الفقه والكلام والنحو، فناظرهم وظهر كلامه على كلامهم ([31])، وقد انتعشت حركة التأليف في هذا العصر بصورة ملحوظة ، حتى تلبي احتياج طلاب العلم في المدارس والمجالس ، وحتي يستطيع المفكرون أن يثبتوا آرائهم ، وينظموها في تأني وروية على أسس علمية سليمة ، وهذا الاهتمام بالعلم والعلماء جعل عامة الناس في هذا العصر تقدر قيمة العلم أن (رجلا من خرسان اشترى الاسكندر للسماع الطبيعي بثلاثة آلاف دينار في مدينة نيسابور) ([32])، والواقع أن القشيري منذ وقعت قدماه أرض نيسابور وجد كل الفرص متاحة له، فلم تبخل عليه مدارسها ومجالسها وحلقها بأي زاد علمي يحتاج اليه ، ووجد من الشيوخ كل رعاية وتقدير ، وفي تقديري أن العصر الذي عاش فيه القشيري يمثل في تاريخ المسلمين نقطة حرجة ، إذ لم يمض وقت طويل حتى تعرض المسلمون لموجتين غربيتين ، الأولى من الشرق متمثلة في المغول والثانية من الغرب متمثلة في الصليبيين ، والاثنين وإن اختلفا في الأسلوب إلا أن غايتهما واحدة ، هي الإطاحة بمجد الإسلام الذي أفاء على المسلمين رغم تفككهم السياسي ومتاعبهم الاجتماعية والاقتصادية خصوبة التفكير وأصالة الابتكار وتعدد المواهب .....نضجت جميعها في عصر القشيري وأثمرت أطيب الثمرات

المطلب الثالث ـ كتابه (الرســـالة) :

حَظيَ كتابُ الرسالة للإمام القشيري باهتمام العلماء شرقا وغربا دون سائر كتبه بالرغم من أنها ليست بأفضل مؤلفاته ولا أكبرها حجماً ، وقد بلغ من هذه الشهرة أن خلعت على صاحبها لقب العالم الجليل ، ويصف السُبكي الرسالة قائلاً : لقد سارت الرسالة مشرقا ومغرباً ، وهي مشهورة مباركة قلما يكون بيت خالي من الرسالة . وأما بالنسبة لصاحبها : فقد كانت أحب كتبه الى نفسه، ولم يفكر في ترجمة كتاب من كتبه الى اللغة الفارسية ـــ التي كان يجيدها ـــ الا الرسالة لولا أن المنية عاجلته ([33])

كَتَبَ القشيري رسالته ـــ كما يقول في مقدمتها ـــ في عام 437 هـ ([34])، أي : أنه كان وقتئذ في الحادية والستين من عمره ، وهي سن تبلغ فيها الخبرة بالحياة درجة كبيرة ، وأحدث ظهور الرسالة دوياً عظيما : كما يقول (جولد زيهر) : حين وجهها

صاحبها الشيخ الصوفي الكبير إلى الجماعات الصوفية ، في كافة أنحاء البلاد الإسلامية ، وقد ساعدت على إعادة الروابط التي كانت تفصم بين السنة والصوفية ([35]) ومن ابرز العلماء الذين اعتمدوا في مؤلفاتهم على كتاب الرسالة الامام الغزالي : سواء في مسلكه الذاتي الطامح الى حياة روحية مطمئنة ، أو في منهج تفكيره ، وتأليفه ، ويعبر الأستاذ (نيكلسون) عن ذلك بقوله : " إن صيحة القشيري في رسالته ، وهو يذكر أهل عصره من الصوفية ، بما كان عليه قدمائهم من الورع ، والتقوى في القول في القول والعمل ، وما آل اليه التصوف من زوال الورع ، واشتدا الطمع : الخ لم تذهب عبثاً ، لأن الغزالي قام بعد اعتزاله منصب التدريس في بغداد ، وبعد ظهور رسالة القشيري بخمسين سنة بمحاولة مزج التصوف بالقرآن ، والحديث واستخرج من المجموع مادة واحدة ([36])

ولقد تناول الكثير من العلماء كتاب الرسالة منهم على سبيل المثال أبو الحسن الموصلي (552 هـ) ولخصها علاء الدين المارديني (ت 750 هـ) ويوجد شرح جميل لشيخ الإسلام والعبد الفقير يملك منه نسخة منه ، وهو شـــرح في غاية الروعة، ومن العبارات التي أعجبني شرحها : فمثلا : عبارة (فهو فناء ليس فيه لذة عبارة موجز يشرحها شيخ الإسلام فيقول المراد (فناءُ الفناءِ، لأن العبد متى كمل شغله بربه ، حتى فنى عن ذكر غيره من قلبه ، كان فناء وإن قوي شغله به ، حتى نسى نفسه ، كان فناء الفناء .....) وقد حرص شيخ الإسلام أن ينقل إلى القارئ صورة صادقة لجهود القشيري ([37])

وأحدث محاولة بذلت للانتفاع بالرسالة في أيامنا هذه ، ما قام به الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن شرف من تحقيق لها ، يقول أثناء التحقيق (.....لقد مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، وأشتد الطمع ، وقوي رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام ، والاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم ، والصلاة وركضوا في هيدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ، والارتقاء بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من ســـوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق ، والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا من رق الاغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق

، تجري عليهم أحكامه ، وهم محو ، وليس الله عليهم فيما يؤثرونه ، أو يذرونه عتب ، ولا لوم ، وأنهم كشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية ، ..... ولما طال فيما نحن فيه من الزمان ، بما لوحت ببعضه من هذه القصة ، وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الانكار غيره على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء ، أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً ، إذ البلوى في هـــذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة ، والمنكرين عليه شديدة ..... أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده ، وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة اليكم أكرمكم الله) .([38]) ، ومن هذه المقدمة يتضح لنا دفاع القشيري عن التصوف ، وأنه علم شريعة وحقيقة وكذلك نفي كل البدع والضلال التي الصقت بالتصوف والمتصوفة .

وبالرغم من وجود كتاب (اللمع) للسراج الطوسي ، وكتاب (التعرف) للكلاباذي التي حاربت الدُخلاء الذين أساءوا للتصوف بالرغم من ذلك كله ، فقد يشاهد قارئ الرسالة من الصفحات الأولى إلى نهايتها حرص الإمام القشيري على تنقية التوحيد من كل دعوى تهدده ، ولو كان مغلفا بالصدق الزائف البراق ، وما يفتأ أن يوضح أن أحكام الشريعة وجوهر العقيدة هي عمدة الدخول الى الطريقة ، وبدونها ، أو التفريط في شيء منها يعتبر باطلاً ، ومن الدعاوي التي قاومتها (الرسالة) مقاومة شديدة التقصير في العبادات بدعوى الانمحاء ، ورفقة النسوان، ومصاحبة الأحداث ، والتستر بالمرقعات ، والتواكل ومسألة الناس ، كذلك مقاومة ما يحدث في مجالس السماع من حركات تحت دعوى الوجد والجذب ، وما يقوم به بعض الناس من أفعال لا يلتفت اليها كالبصق في القبلة ونحو ذلك تحت اسم الولاية ([39])، ولكي يفي القشيري بهذه المقاصد ، نجده في رسالته قد التزم خطة واضحة محددة في كل أبواب الرسالة ، فبعد أن يذكر الباب نجده يبحث عن آيات كريمة أو أحاديث نبوية والغرض من ذلك أن يشعر القارئ أن الموضوع الصوفي مستمد في أصله من الكتاب والسنة النبوية الشريفة ، ثم يحاول القشيري بعد ذلك أن يضفي عليه المفهوم الصوفي ، وذلك أما عن طريق إبداء رأيه الشخصي ، أو عن طريق إيراد مجموعة ضخمة من أقوال شيوخ الصوفية ، وهي كثيرة جدا حتى يشاهد القارئ لأول وهلة أن الرسالة من كتب التراجم ليس إلا ، واذا سمحنا لأنفسنا أن نقول ذلك ، فيبقى للقشيري فضل عظيم : أنه جعل كتابه وثيقة نادرة جمع فيها الأسانيد الصوفية ، وما يدحض كل افتراء يوجه الى المتصوفة في ذلك الوقت : من أنهم بعيدين كل البعد عن أحكام الشريعة ، وأصول العقيدة .

ولا يخفى على القارئ المتخصص أن هذا : المرمى الذي يقصده القشيري كما ذكر في مستهل الرسالة ،وبمعنى آخر ان الخطة التي اتبعها القشيري ملائمة لمقصده ، فهو لم يقصد اظهار شخصيته ولا رأيه ، إنما قصد لإظهار شخصيات لها وزنها في علوم الطريقة ، والحقيقة إظهار آرائهم التي بنوا عليها قواعدهم وصانوا بها عقيدتهم في التوحيد بعيدة كل البعد عن الانحراف والبدع .

وصاحب الرسالة مشكور- أيضاً - لم يقتصر على تجميع آراء الفقها فحسب ؛ بل أحيانا يوضح ما كان فيه غموض مثال (من كلام الواسطي وما فيه من إشكال : اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ، ولا خوف) ، يفسره القشيري ، فيقول : (وكلام الواسطي قيه اشكال ، والمعنى إذا اصطلمت شـــواهد الحق الأسرار ملكتها ، فلا يبقى فيها مساغ لذكر حدثان ، والخوف والرجاء من آثار الإحساس بأحكام البشرية) ([40])

واخترت - أيضاً - قول القرمسيني : (الفقير : هو الذي لا يكون له الى الله حاجة) ، يوضحه القشيري ، فيقول : (وهذا اللفظ فيه أدنى غموض ، لمن سمعه في وصف الغفلة عن مرمى القوم ، وانما أشار قائله إلى سقوط المطالبات ، وانتفاء الاختيار والرضاء بما يجري الحق سبحانه)([41]) ، وليس هناك من شك في أن الإمام القشيري قد أحسن الاستفادة من الكتب الذي سبقته كما أسلفت ، وبخاصة (قوت القلوب ،للمكي ، ت سنة 386 هـ) ، و (التعرف للكلاباذي، ت سنة 390 هـ) ، و (اللمع ، للطوسي ،ت سنة 378 هـ) ، ويتجلى ذلك في التشابة الواضح بين مسالكهم جميعاً وخاصة في طريقة التفكير والتعبير ، الا أن القشيري تفـــوَّق على المكي في التصوف العملي ، وأما في التقديم فهناك تشابه بين القشيري في رسالته والكلاباذي في تعرفه ، يقول الكلاباذي : (حتى قل الرغب وفتر الطلب ، فصار الحلال أجوبة ، ومسائل ، وكتباً ، ورسائل ، الى أن ذهب المعنى ، وبقى الاسم ، وغابت الحقيقة ، حصل الرسم فصار التحقيق حلية ، والتصديق زينة ، وادعاه من لم يعرفه ، وتحلى به من لم يصفه ، وأنكره بفعله ، من أقـــر به بلسانه و.....)([42])

أما فيما يخص باستفادته من الطوسي ، فهذه مسألة لا تحتاج إلـــى جهد في ايضاحها ، لأن اسم الســـراج الطوسي لا يكاد يغيب عن قارئ الرسالة ، وخاصة عند الحديث عن المقامات والأحوال ، أو عند الاستشهاد بالشعر ، هذه لمحة بسيطة أردت أن أنبه

القـــراء عن كتاب يعتبر من الكتب المهمة في الفكر الإسلامي ، وكذلك مؤلفه الإمام أبي القاسم القشـــيري وهما موضوعان جديران بالدراسة والتحليل .

الخاتمـــة

وأحمد الله- تبارك وتعالى- على مَا مـــنَّ به عَليَّ من إتمام بحثي هذا واختمه بأهـــم النتائـــج :

1 - القشـــيري : هو عبد الكريم بن هَوَازنْ بن عبد الملك بن طلحة الصوفي صاحب الرسالة ،الفقيه المتكلم ،الاصولي ،الاديب ،النحوي ،مقدم الطائفة كما يقال.

2- من علماء القرن الرابع الهجري .

3 - من اسرة علمية وأولاده من العلماء وطلبةِ العلم .

4 - من علماء التصوف الإسلامي السني وله علاقة بالعلوم الأخرى كاللغة والادب والحديث والفقه والتفسير.

5 - الإمام القشيري من علماء التصوف الســـني المعتدل الواضح المستمد أصوله من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وصحابته .

الهوامـــش :

[1]- ينظر الانساب، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المرزوي ، أبو سعد(563 هـ) تح عبد الرحمن بن بحي ،حيدر آباد،ط10،1/427 ،1962 م . وتاريخ نيسابور ، تقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الازهر بن أحمد العراقي الصيرفي الحنبلي(ت: 641 هـ) ، تح خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والتوزيع،ط5،2/153،وتوضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وانسابهم والقابهم، محمد بن عبدالله أبي بكر بن محمد ابن أحمد بن مجاهد الدمشقي الشافعي شمس الدين ، الشهير بابن النصر الدين (ت:842هـ) تحقيق محمد نعيم ، مؤسسة الرسالة- بيروت،ط1،1/1993،515م.

[2]- ينظر طبقات الشافعية الكبرى، عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو ، تقي الدين المعروف بأبن الصلاح (ت :643 هـ)،تح : محي الدين علي نجيب،دار البشائر الإسلامية، بيروت ،ط: الأولى 2/562:.

[3]- ينظر أنباء الرواة على أنباء النحاة ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت : 646 هـ) المكتبة العصرية بيروت، ط ، الأولى والثانية / ص،193 .1980م .

[4]- ينظر مفهوم الأسماء والصفات، سعد بن عبد الرحمن ، مجلة الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ،58/116، المكتبة الشاملة .

[5]- ينظر طبقات الشافعية الكبرى،5/153 ،

[6]- ينظر مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لابي محمد عفيف الدين عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (ت :768 هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ،ط1، 3/71 1997،3 م .

[7]- ينظر المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: 597 هـ)،تح محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة 1، 16/1992،148م ، وشذرات الذهب في أنباء من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن

محمد ابن العماد العكبري الحنبلي ، أبو الفلاح (ت: 1089 هـ) ، تحقيق : محمود الارناؤوط ،دار ابن كثير ، دمشق ، ط 1،276 /1986م .

[8] (أستوا) بضم أوله وسكون السين المهملة وضم التاء المثناة وواو وألف كورة واسعة كثيرة القرى في ناحية خرسان قرب مشهد الامام أبي الحسن الرضا ،اسمها خبوشان واليوم يقال لها قوجان ،معناه بلسانهم المضحاة والمشرقة ، وهي تشتمل على ثلاث وتسعين قرية . ينظر معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (ت : 626 هـ) ط2 ،175/1،صادر بيروت ،1995م . وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، سمش الدين أبو عبدالله الذهبي (ت :748 هـ) ، تح :عمر عبد السلام ، ط20،187/2, الكتاب العربي بيروت 1993م .

[9] - ينظر التدوين في احبار قزوين ، عبد الكريم محمد بن عبد الكريم، أبي القاسم القزويني (ت : 623 هـ) ، تحقيق : عزيز العطاري ، ط3،210/1 دار الكتب العلمية1987 م .

[10] - تفسير القشيري، المسمى لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت : 465 هـ) تح ، إبراهيم بسيوني ، ط1,8/3، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر .

[11] - ينظر البداية والنهاية ، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت :774) تح عبدالله بن عبد المحسن التركيط16،40/1، 2003 م .

[12] - ينظر البداية والنهاية ، 40 /16 ،تاريخ الأمم والملوك ، 16 148 .

[13] - ينظر وفيات الاعيانوأنباء أبناء الزمان ،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابراهيمبن أبي بكر بن خلكان البرمكي (ت : 681 هـ) تح ، احسان عباس ط ،3،206/1 ، دار صادر بيروت 1994م . طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، 5 / 156 ، 5 /106 ، واعراب القرآن وبيانه ، محي الدين درويش (ت : 1973م) ط4 ، 510/8 ،دار ابن كثير ، دمشق .

[14] - ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان ،376/2 .

[15] - طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، 5 / 69، وشذرات الذهب في اخبار من ذهب ، 5 /331 ، وطبقات المفسرين ، أحمد بن محمد الأدنوي من علماء القرن الحادي عشر ، تح صالح الخزي المكتبة الشاملة ، 134/1 .

[16] - ينظر الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبدالله الصفدي (ت : 764 هـ) تح أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى ، 19 /256،

[17] - ينظر الوافي بالوفيات ،19 /172 . طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، 225/5 ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ت : 774 هـ) تح ، أحمد هاشم ،1،509/ ،مكتبة الثقافة الدينية ،

[18] - ينظر :تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام 23 /87 ، والمنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ، 346/1 ، وطبقات الشافعية الكبرى ، 5 /105 .

[19] - ينظر كتاب الفروع، محمد بن مفلح شمس الديم المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (ت : 763) تحقيق ، عبدالله التركي ، مؤسسة الرسالة ،92/2 . المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ،190/17 . البداية والنهاية ، 16 /249 .

[20] - ينظر المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، 330/17 ، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، 36/ 284 ،الشاملة ، البداية والنهاية ، 317/16 ،شذرات الذهب 6/ 164 ،تاريخ بغداد ، أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت : 463 هـ) ط:1 ،422/14،تح مصطفى عطا ، ط : 1 ،91/16 ، بيروت . سير اعلام النبلاء ، الذهبي (ت : 748 هـ) ط: 1،14 / 422، دار الحديث القاهرة 2006 م .

[21] - ينظر : المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ، 468/1 .

[22] - ينظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ، ابي عبدالله الزرقاني المالكي (1122 هـ) ط،475/2 ط، دار الكتب العلمية ،1996 م .

[23] - ينظر شذرات الذهب ، لابن عماد الحنبلي ،ج3 /153 .
[24] - البداية والنهاية لابن كثير
[25] - ينظر الرسالة ، للقشيري ، ص 38 .
[26] - نفس المصدر السابق ،ص38 .
[27]- ينظر تاريخ الخلفاء ـــ للسيوطي 2/ 185 ، وطبقات الشافعية ،3 /137 .
[28] - ينظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير وذلك ترجمته في شذرات الذهب .
[29]- ينظر الرسالة 165 .
[30]- ينظر طبقات الشافعية ن ج253/3 .
[31]- ينظر الرسالة ، 124 ،125 .
[32]- ينظر تذكرة الحفاظ للذهبي ، 1334/3 .
[33] - ينظر طبقات الشافعية الكبرى ، 243/3 .
[34]- ينظر مقدمة الرسالة .
[35]- ينظر العقيدة والشريعة ـــ جولد زيهر ص 175، 176 .
[36]- التصوف الإسلامي نيكلسون ، ترجمة عفيفي ص 83 .
[37] - ينظر مقال للدكتور أبي العلاء عفيفي ، مجلة تراث الإنسانية ، المجلد الاول ، العدد6 ،(المكتبة الشاملة)
[38] - ينظر مقدمة الرسالة : ص/3 .
[39]- ينظر الرسالة ، ص 15 .
[40] - ينظر الرسالة ،ص/66 .
[41] - ينظر الرسالة ، ص/ 137 .
[42]- ينظر التعريف : للكلاباذي ، المقدمة ص/4 .